قصة مصرية

الشـــــــيطانة

حدثنى صديقى وهو ينكت الأرض بعصاه فقال « بحثت طويلا فلم أعثر على ضالتى » ثم صمت وقال « وأخيراً فى احدى الأحياء الوطنية المتوسطة الحال قاربت أن أصل اليها ولكن فى اللحظة الأخيرة نفضت يدى وخرجت فائزا منصورا »

فرابنى قوله وقلت « ولكنى تعودت أن أشعر بالسرور اذا ما انتهيت الى أملى وفزت به ، وأراك تخالفنى كل المخالفة أو ربما تخالف الناس كلهم »

لم يدعنى أتم حديثى حتى قال : لأنها كادت تكون ماسأة وكاد ذلك الأمل يقضى على أنا صاحبه ففضلت النجاة من الكارثة قبل أن تحل وفعلا نجوت ياصديقى وفزت فأحمد الله كثيراً . . ثم عاد الى صمته وأخرج لفافة التبغ وأشعلها . وبما أنى تعودت ألا أكون البادىء بالحديث دائما فقد صمت ، لكن كلمات ذلك الصديق أوقدت فى الرغبة للعلم بهذه الأمنية فسألته بلهفة : ماهى هذه الضالة ياعزيزى ؟ فقال وهو يبتسم : سأذكر لك قصتى على أن تعيرنى أذنك — فوعدته .

مد صديقى ساقيه ورمى اللفافة جانبا وقال : كنت كما تعلم فى كلية الحقوق وكنت كما يدعونى اخوانى (خاما) لا أعرف من أمور الحياة التى يعرفونها شيئاً . . أى كنت من الكلية للبيت أو من البيت للكلية ، حتى جمعنى واخوانى مجلس سمر لذيذ ، فجلسوا يسردون على مسامع بعضهم قصصا ، بل نوادر غرامية حدثت لهم ، وأنا أستمع بشغف ، ولم يكن للأسف لدى ما أقوله فصمت طبعا . وكنا أربعة ، قال أحدنا واسمه كريم : «عرفتها بعد أن تعبت وراءها شهرين طويلين وذرفت لها الدموع حتى جفت مآقى . ثم قال بلهجة الواثق الفخور . أخيرا « حنت » . ووقعت وبادلتنى الحب . إلا انى اليوم أحب فى (جاردن ستى) . فقاطعه محمد قائلا : انى أخاف أن تشاطرنى فتاتى فتسلبها منى فى جاردن ستى ، فقال كريم : أتصفها لى ؟ قال محمد : زرقاء العينين حمراء الخدين بيضاء ناصعة ، نحيلة الخصر ، باسمة الثغر ، شديدة الخجل ، اذا سارت فهى ملاك واذا جلست فهى إلهة الجمال . فقاطعه كريم بقوة قائلا : ما اسمها ؟ قال مريم ، قال كريم هى بعينها . ولكننى لن أحبها بعد اليوم ، وهنا التفت حسن الى وقال : وأنت ياخايب . . قلت انى لم أحاول بعد ، واذا حاولت فسأكون شريفا ، فلا أحب غير واحدة . فضحكوا وقال كريم — وكأنه رودلف فالنتينو — انى أحببت المئات ، ولو أردت لأحببت الألوف ، فوجمت . . وانقطع الحديث . . بدخول والده . .

مضت ليال على هذا الحديث . . ولم أكن من رواد جاردن ستى ، ولكنه جيبى كان يفضل دائما

الأحياء المناسبة لحاله (من باب الخلق ، للسيدة زينب ، للحسين) وأخيرا استقرت بى الحال فى الحسين فى منزل هادئ ساكن . ونظرا لطول الشقة بين دارى والكلية كنت أبكر فى الصباح حتى أصل فى الميعاد . . وهكذا مضى شهر وأنا أبحث عن فتاة أتعرف اليها أو أحبها فلم أجد ، ولم أجد ولو واحدة حنت كم يقول كريم ، ولكننى كنت عند ركوب (الأتوبيس) أجد فتاة - ليست بالجميلة جدا ، وانما متوسطة الجمال ، وأيضا قد تكون متوسطة الملابس ، وأيضا قد تكون متوسطة الحال على مايظهر - تركب معى بجوارى أو أمامى . . وكنت خجولا حييا فلم أجرؤ على النظر اليها ، ولكن وجود هذه الفتاة كل صباح أثر على حتى كنت أشعر بفراغ كبير اذا لم أجدها ، ولحيائى كنت عندما أراها ينخفض رأسى ويتساقط العرق وتهبط درجة الحرارة قليلا ، وقد يحمر وجهى أو يصفر لا أعرف . . وانما أشعر بتغير فيه . .

على هذه الحال مضت الأيام سراعا حتى قاربت الشهرين ، ولم أعرف عنها شيئا سوى أنها تقطن فى الحى الذى أقطن فيه وأنها تركب (الأوتوميبل) الذى أركبه وتنزل معى فى السيدة وهنا تنفصل .

شعرت بأننى أحببت هذه الفتاة وأنها بدأت تشغل فراغا فى قلبى . . وملكت لبى حقا وشعرت أن الحياة أصبحت عبئا ثقيلا لايحتمل بدون أن أصل اليها ، وكثيرا ماعزمت على أن أتبعها فى الصباح ولكن تخونى شجاعتى فى آخر لحظة بعد أن أقوم بعدة تجارب فى المنزل وأحضر الحديث الذى سيدور بيننا . . ولدى (البروفات) ياعزيزى اذا كنت تريد أن تطلع على هذه الأحاديث الخيالية . . فكرت كثيرا فى الطريق التى أصل بها اليها ؛ وأخيرا اهتديت الى الطريقة المثلى فقمت على عجل فى الصباح ومررت على صديق يدرس فى الطب وعرضت عليه المسألة بحذافيرها . . فقال وهو يبتسم : تعال معى وسنكون سويا وسنرى . . تشجعت ووقفت أنتظر (الأتوبيس) وقفة نابليون بجوار الهرم الأكبر ، ولكن عندما رأيتها قادمة فقدت شجاعتى وأصبحت كما يقول الأنجليز (ضعيفا كالقطة) . . . أتت وركبت وركبنا . نظر اليها صديقى طويلا ثم ابتسم فأخفت وجهها خجلا ، ولكن بعد أن مررنا بباب الخلق بدأت تبتسم ، ونزلنا فى السيدة ومشينا وراءها حتى تقدم اليها وقال بلهجة أرستقراطية : صباح الخير ! فحيته بأحسن منها . . فقال صديقى : فلان بك طالب حقوق ، ويود أن يتشرف بمعرفتك ، فقالت لى عظيم الشرف ، وأنا فلانة تلميذة بمستشفى كذا . . وتم التعارف حتى كدت أطير من الفرح لهذه الفكرة الطريفة .

سار صديقى يتحدث معها وأنا أفكر فى المستقبل الباهر الذى ينتظرنى ، وأبتنى من الأمل بيوتا تضارع ناطحات السحاب ، ولكن اذا ما تعارضت مع فكرة سيئة سقطت تلك الطبقات فصارت أكواخا ضئيلة على شاطىء بحيرة الصيد هناك فى بلدنا عند المطرية . .

مضى اليوم وأنا فى سرور عظيم أدهش أقرانى فى الكلية ، وخرجت مسرعا الى المنزل وارتديت

أفخر ثيابي وأفرغت على نفسي زجاجة (الكولونيا) ووقفت أنظر من النافذة فرأيت صديقة الصباح تطل وتحيني فحييتها بحمل مرتبكة وأطرقت بوجهي فدخلت .. عجبت وسألت نفسي كيف يكون هذا منزلها ولا أراها مطلقا إلا اليوم ؟! لاشك أنني أسرتها فأحبتني وأخلصت لي ، وأنها كانت تبادلني الحب النظري الشعري الجميل . . . إنها حقا لفلسفة عميقة من تلك التي أحبت من أجل الحب ..

فرحت لهذا الخاطر الجميل ورفعت رأسي فوجدت جموعا تطل من النافذة . امرأة عجوز وأخرى تقل عنها قليلا وفتاتي وخمسة أو ستة من الصغار والصبية ، وكلهم ينظرون إلي بين ضاحك ومعجب فدخلت مسرعا وجلست إلى المكتب ، وفتحت كتاب القانون الضخم ، وأخذت أقلب فيه وأنا لا أقرأ وإنما أنظر مدعيا القراءة . ظللت على هذا العهد متما أياما غير قلائل وأنا أصحبها في الصباح وأدفع قرشا بأكمله .. وفي المساء لا يقل مايصرف عن (شلن) في شراء (سجاير) لي ولم أكن أدخنها ، وفي مصروف للأطفال وغير ذلك .. وزاد المصروف قليلا وأبنت لوالدي في خطاب بأن الكلية طلبت منا كتبا تساوي أربعة جنيهات فأرسلها بسرعة واشتريت لها سوارا جميلا قدمته لها وأنا خجل أيضا ، وأقول كان بودي أن تكون هديتي أثمن من هذه ولكنني لازلت طالبا فقبلتها وهي تتمنى لي أطيب التمنيات لآتي لها بأثمن (المصاغ) والملابس .

انقضى العام ومرت الأيام سراعا . . وحلت الأجازة الصيفية ، وعبثا أحاول أن أقنع والدي بضرورة الاقامة في مصر ، ولكنه رفض وأرسل الي يؤنبني ، وأخيرا اعتزمت السفر وكانت تتبع أنباء المفاوضات بيني وبين الوالد المحترم .. حتى علمت ألا مناص من السفر وأنه بات أمرا واقعا فحزنت وتكدرت ، واجتهدت في تخفيف أحزانها ولكنها كانت ترميني بالشك في إخلاصي ، وتتخذ من حديثي لها في الترفيه عن نفسها سلاحا للبرهنة على ظنها ، ولكنني كنت أقسم لها بالحب العظيم الذي بيننا أنني مخلص وفي محب شريف .

حدد يوم الخميس للسفر وحدد يوم الأربعاء للمقابلة والوداع ، فزودتني بالنصائح وملأتني بعباراتها الخلابة الجميلة . . حتى أنني كنت في ذلك اليوم أشعر لأول مرة بسعادة الحب .

لقد كنت ياصديقي صريحا وقد عرضت ظروف يطلق عليها الشباب المتهوس (فرصا) ظهرت فيها بمظهر نبيل لا يتنافى مع أخلاقي الخام ، وقد يعدها البعض غباوة وبلاهة ، لكنني كنت أشعر أن المثل الأعلى الذي وضعته هو أن أصل (بالدراما) الى أعلى مراتب الحب النزيه الخالي من الشوائب لا أطيل عليك . . . تحدثنا وطال الحديث وذهبنا الى منزلنا سويا . جلسنا صامتين تنظر الى بحزن وكآبة وأنا أنظر اليها بغباوة وبلاهة وقد تصبب العرق وحمى جسمي فعرضت عليها أن تخلع معطفها فخلعته . أحسست بتيار كهربائي يسري في عروقي فانتفضت وشعرت بأنفاسها تطرد وهي تجتهد في كتمها ، وكدت أرتكب عملا جنونيا ، لكنني فجأة وقفت وعدت أدراجي ،

وجلست فلم يلبث أن عاد الى برودى ووجومى .

مضت ساعة ثم استأذنت رودعتها وداعا حارا حتى انى تجرأت وقبلت أطراف أصابعها !

ثم خرجت مسرعة وذهبت الى منزلها .

فى الصباح المبكر كانت عربات الدرجة الثالثة ممتلئة بالركاب وقد اتخـــذت مقعدى بجوار النافذة وبدى جرائد الصباح بأجمعها ولم أقرأ فيها حرفا ؛ تحرك القطار من محطة القاهرة وخرج من ظلامها ينساب كالأفعى الى النور ، وكان نورا حقا . . . فالمزارع خضراء والسماء زرقاء وأرض الحصاد بيضاء والقطن أخضر قاتم والماء يتخلل الأراضى كالشرايين يرويها فتورق وتثمر من كل زوج بهيج ، كانت المناظر جميـــلة إلا أننى كنت قلقا تخيم على ذهنى سحابة من الحزن وتملكتنى الفكر فارتادت بى الربى والآكام وانحدرت الى الكهوف والمغاور إلا أن بين هذا وذاك كان رأس صغير ذو عيون صامتة حزينة يبدو عليه دخان أبيض أحاول لمسه ، ولكن أين هو ؟ انه خيال ، انها فتاتى الصغيرة ومعبودتى ـ كيف تركتها لا أعلم !

خطر لى خاطر قد تعده غريبا . . . فى تلك اللحظة قلت فى نفسى لماذا لا تكون هذه الفتاة تحب غيرى كما أحبتنى ، ان هذا الشاب الذى رأيته معها مرارا وادعت هى قرابته لا يمت لها بصلة كما علمت من مصدر آخر ، يالى من غبى ! كيف أتهاون الى هـذا الحد ؟ ولماذا ادعت قرابته ؟ ولم يتسرب الى نفسى الشك ؟ انها ما كرة انها تلعب بى . . . ولم ألبث قليلا حتى تملكنى اليأس وسيطر على القنوط وتصلبت أعصاب المخ ووقف دولاب العقل وأخيرا غضبت واشتد غضبى ، وفتحت جريدة ملأى بأخبار تافهة لا قيمة لها بالنسبة لهذه المسألة الجسيمة التى اضطرب لها جل فكرى . . يجب أن أعاملها كما عاملتنى هذه الخائنة . . تأملت فى صورة فى الجريدة مدة ، ثم جاءتنى مشاغلى فوجدت نفسى أحن الى رؤيتها وأتشوق لهاتين العينين الزرقاوين وبدأت أرمى من رأيى تلك الأفكار إلا إخلاصها . . فأمس كادت تسلم نفسها لى . . ألا يكفينى هذا دليلا ! . . أرسلت هذه الفكرة الراحة إلى العقل وأيقظت الأمانى والأحلام الجميلة . . وصلت إلى قريتى فى المساء . . ولا يخفى عليك جو المطرية الجميل فى أيام الصيف . . مضت ليلة وعيـــ أخبر لها خطابا فى الصباح أطلبها بوصولى وأسألها عن هذا الشاب وغيره من الشبان الذين كان أصدقائى يرونها تسير معهم . . اختمرت الفكرة فى رأسى طول الليل ، وفى الصباح المبكر حملت محبرة وقرطاسا وقلما . . وجلست جلسة ريفية وتركت العنان للجمل التى تواردت على جنانى فحررتها بسرعة ، وكثيرا ماشطبت وكثيرا ماحوت ، وأخيرا بيضت فى ورقه جميلة ضمنتها عبارات الحب والولاء والاخلاص ، وأنى على عهدى لازلت ، وسألتها ـ فى لهجة الأدب ـ عن هؤلاء الشبان . .

مضى يومان انتظرت خطابها فيهما بفارغ الصبر وأخيرا وصلنى فلم أصدق وصوله وحملته فى

يدى شاكا فيه . . . ركبت قاربا صغيرا من قوارب الصيد على مياه البحيرة الراقصة الزرقاء ، وأخذت المجداف فى يدى وحركته بسرعة بعيدا عن الشاطىء حتى وصلت إلى تل الذهب ورسوت بجـــواره ، وأخرجت الخطاب برفق وفضضته ثم مد يده إلى جيبه وأخرج عدة رسائل أعطانى واحدة منها فقرأتها بامعان رغم رداءة خطها وسخافة لفظها ، وإذا بها

وحيدى !

أرسل إليك بازهرة الألباب سلامى المملوء بالمحبـــة الخالدة والاخلاص من فؤاد حزين يعبدك ، متألمة لفراقك تلك المدة التى لاأجد فيها أخا حنونا يواسينى فى هذه المدة التى كدت فيها أفنى لولا خيالك يرافقنى وطيفك يمر بى فيتركنى فى غياهب لاأدرى كيف الخروج منها ، وبعد :

عزيزى ! أبعث إليك تلك الرسالة العزيزة وأنا جالسة أبكى سعادتى لفراق شخصك المحبوب جلست صامتة مفكرة فى ذكرياتك اللطيفة التى هى أحسن شىء عندى فى الحياة الدنيا .

وختاما أختم خطابى بقبلاتى الحارة ؟ المخلصة مريم

عاد صديقى إلى حديثه فقال قرأت هذا الخطاب مرتين أوثلاثة ولا يمكننى أن أصف شعورى فى تلك اللحظة السعيدة فقد عدت وأنا مطمئن على آمالى فى الحياة . . عدت إلى العاصمة وأنا مملوء بالرجاء مزود بالآمانى والآمال ، وما كان أحلاها لحظة أن رأيتها ، ولكنها قابلتنى بفتور غريب لم أكن أتعوده منها ، لم أكيف هذا الفتور حتى آويت الى فراشى وأخذت أبحث على أصل إلى خبايا نفسها فلم أوفق . . . ولم أرها عشرين يوما قابلنى فى خلالها صديقى فى مدرسة الطب فسألته عنها فقال ببرود . . وهل لازلت تحبها ؟ فقلت « نعم » فارتمى على جانبيه من الضحك وقال . . . لازلت « خاما » إلى الآن لقد مثلت معك الدور ببهارة كما مثلته معى ومثلته مع جملة من أصدقائى وأصدقائك . . بل وحلاقين وأسطوات الخ . . . فقاطعته وقلت له « كفى » وأخرجت خطاباتها وأريتها لصديقى فأخرج لى أربعة أو خمسة منها أيضا ! ! ونزلنا سويا إلى السينما وعدت حوالى منتصف الليل فأعطانى البواب خطابا معنونا باسمى ففتحته على ضوء مصباح ضئيل فقرأت :

عزيزى فلان ! لاتفكر فى مطلقا لأنى أصبحت لاأحبك ؟ مريم

لم يغرنى هذا الخطاب فانه كان منتظرا ، وخلعت ملابسى بنشاط ونمت ملء جفنى حتى الصباح وذهبت إلى الكلية فقصصت على كريم قصتى فقال لقد أفلست ياصديقى فى حبك ولقد جارت عليك بهذا الحكم الفظيع .

ثم صمتنا وصعدنا إلى قاعة المحاضرات وعادت الأمور إلى مجاريها . . وهذه هى قصتى .

قلت ـ وقد عادت الشمس إلى خدرها ـ إنك سقطت فى دور أنطونيو أما هى فنجحت فى تمثيل كليوباترة إلى حد الاجادة ؟ عبد الفتاح السيد

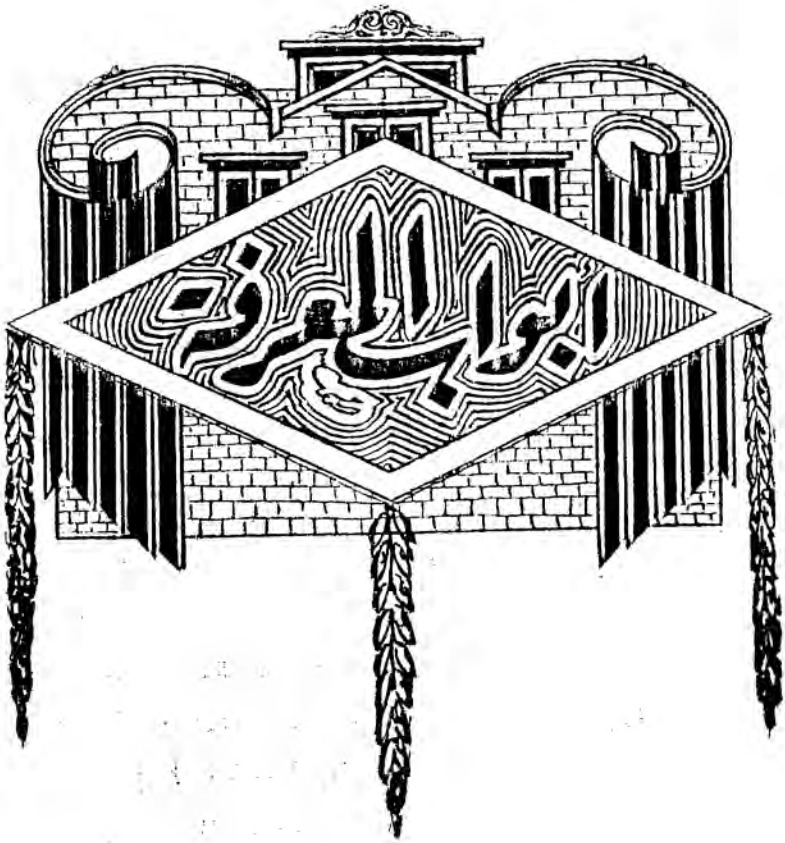
أبواب المعرفة